أما المعنى الذي توخاه كسرى في هذا الاستثناء فبينه العلامة ابن الاثير في كتابه الكامل ناقلا عن كلام كسرى فقال «ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتلة أجراء لاهل العمارة وأهل العمارة أجراء المقاتلة فانهم يطلبون اجورهم من أهل الخراج وسكان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم عمن وراءهم فحق أهل العمارة أن يوفوهم أجورهم فان العمارة والامن والسلامة في النفس والمال لا يتم إلا بهم ورأيت ان المقاتلة لا يتم لهم المقام والاكل والشرب وتثمير الاموال والاولاد الا بأهل الخراج والعمارة فأخذت المقاتلة من أهل الخراج ما يقوم بأودهم وتركت على أهل الخراج من مستغلاتهم ما يقوم بمؤنتهم وعمارتهم ولم أجحف بواحد من الجانبين»

وحاصله انه يجب على كل فرد من أفراد الملة المدافعة عن نفسه وماله فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء — وهؤلاء أهل الجند والمقاتلة — وأما من كان يشغله أمر العمارة وتدبير الحرث على المخاطرة بالنفس فيحق عليه ان يؤدي شيئاً معلوما في كل سنة يصرف في وجوه حمايته والدفاع عنه — وهذا هو المعنى بالجزية فانها تؤخذ من أهل العمارة وتعطى المقاتلة والجند الذين نصبوا أنفسهم لحماية البلاد ولاستتباب وسائل الامن والسلامة لكافة العباد — (البقية بعد)

الاختلاف والتفرق في الدين

ذكرنا في عدد سابق ان تقصيرات العلماء التي وصلت بنا الى ما نحن فيه اليوم عشرة ووعدنا بالكلام عليها تفصيلا في مقالات متعددة وأهمها أولها في الذكر وفي سوء التأثير وهو التفرق في الدين واختلاف المذاهب في أصوله بالاخص ولما كان هذا يحتاج الى شهادة التاريخ رأينا أن نذكر بعض الوقائع التاريخية في الموضوع لما فيها من الفائدة والاعتبار ولرغبة النفوس في الاطلاع عليها وعنايتها بقراءتها . وهاؤم اقرؤا في أولها هذه الواقعة التي وقعت في مثل هذا الشهر المبارك على انها من أهون الوقائع وهي

﴿ الواقعة الأولى ﴾ لما اتصل بالملك الاشرف موسى ابن الملك العادل في دمشق (قبل خروجه الى مصر) ما عليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام من العلم والدين وانه سيد

أهل عصره وحجة الله على خلقه أحبه وصار يلهج بذكره ويؤثر الاجتماع به والشيخ لا يجيب الى الاجتماع به وكانت طائفة من مبتدعة الحنابلة القائلين بالحرف والصوت ممن أحبهم السلطان في صغره يكرهون الشيخ ويطعنون فيه وقرروا في ذهن السلطان الاشرف ان الذي هم عليه اعتقاد السلف واعتقاد أحمد ابن حنبل وفضلاء أصحابه واختلط هذ بلحم السلطان ودمه وصار يعتقد ان مخالفه كافر حلال الدم . ولما مال السلطان الى الشيخ عز الدين دست اليه هذه الطائفة ان الشيخ اشعري العقيدة يخطيء من يعتقد الحرف والصوت ويبدعه ومن جملة اعتقاده أن يقول بقول الاشعري ان الخبز لا يشبع والماء لا يروي والنار لا تحرق . فاستهول ذلك السلطان واستعظمه ونسبهم الى التعصب عليه فكتبوا فتيا في مسألة الكلام وأوصلوها اليه مريدين أن يكتب عليها فيسقط وصفه عند السلطان وكان الشيخ قد اتصل به ذلك فلما جاءته الفتيا قال هذه الفتيا كتبت امتحانا لي والله لا أكتب فيها الا ما هو الحق فكتب العقيدة المشهورة فلما فرغ منها وناولها اليهم وهو يضحك عليهم فطاروا بالجواب وهم يعتقدون أن الحصول على ذلك من الفرص العظيمة التي ظفروا بها ويقطعون بهلاكه واستباحة دمه وماله فأوصلوا الفتيا الى الملك فاستشاط غضبا وقال صح عندي ما قالوه عنه وهذا رجل كنا نعتقد انه متوحد في زمانه في العلم والدين ويظهر بعد الاختبار أنه من الفجار لا بل من الكفار وكان ذلك في رمضان عند الافطار وعنده على بساطه عامة الفقهاء من جميع الاقطار فلم يستطع أحد منهم أن يرد عليه بل قال بعض أعيانهم السلطان أولى بالصفح ولا سيما في مثل هذا الشهر وموه آخرون بكلام موجه يوهم صحة مذهب الخصم يظهرون أنهم بموافقته (انظر الى علماء السوء وفقهاء الضلال كيف استعبدوا للسلاطين وأغضبوا الحق لارضائهم فضاع بينهم الدين) فلما انفصلوا تلك الليلة من مجلسه بالقلعة اشتغل الناس في البلد بما جرى في تلك الليلة عند السلطان وأقام الحق سبحانه وتعالى الشيخ العلامة جمال الدين أبا عمر بن الحاجب المالكي وكان عالم مذهبه في زمانه وقد جمع بين العلم والعمل فتكلم في هذه القضية ومضى الى القضاة والعلماء الاعيان الذين حضروا هذه القضية عند السلطان وشدد عليهم النكير . وقال العجب انكم كلكم على الحق وغيركم على الباطل وما فيكم من نطق بالحق وسكتم

وما انتصرتم لله تعالى وللشريعة المطهرة ولما تكلم منكم من تكلم قال السلطان أولى بالعفو والصفح وهذا غلط يوهم الذنب فان العفو والصفح لا يكونان الا عن جرم وذنب هلا أعلمتم السلطان بأن ماقاله ابن عبد السلام مذهبكم ومذهب أهل الحق وان جمهور السلف والخلف عليه لم يخالفهم فيه الا طائفة مخذولة يخفون مذهبهم ويدسونه على تخوف الى من يستضعفون علمه وعقله وقد قال تعالى «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» ولم يزل يعنفهم ويوبخهم الى أن اصطلح معهم على أن يكتب فتيا بصورة الحال ويكتبوا فيها بموافقة ابن عبد السلام فوافقوه على ذلك وأخذ خطوطهم بموافقته

والتمس ابن عبد السلام من السلطان عقد مجلس للشافعية والحنابلة وبحضرة المالكية والحنفية وغيرهم من علماء المسلمين وذكر انه يعتقد ان السلطان اذا ظهر له الحق يرجع اليه ويعاقب من قوى الباطل عليه وانه أولى الناس بموافقة والده السلطان الملك العادل تغمده الله برحمته وانه عزر جماعة من أعيان الحنابلة المبتدعة وانه أخذ خطوط الفقهاء الذين كانوا بمجلس السلطان في ذلك الوقت

فلما وقف السلطان على ذلك أجابه كتابة بجواب يذكر فيه انه رأى من عقيدته مايغنيه عن الاجتماع به وانه (أي السلطان) يتبع ماعليه الخلفاء الراشدون وذكر فيه ماإذا كان الشيخ يدعي الاجتهاد . فأجابه الشيخ بجواب مطول يصدع فيه بالحق فاستشاط السلطان غضباً وأمر أن لايفتي الشيخ ولايخرج من بيته وأن لايجتمع بالناس ففرح الشيخ لما بلغ ذلك فرحا شديدا وقال لرسول السلطان لو كان عندي خلعة تليق بك لخلعت عليك ولكن خذ هذه السجادة فصل عليها ونحن على الفتوح فقبلها وقبلها (وكان الرسول يعتقد صلاح الشيخ) ولما ذكر للسلطان مادار بينه و بين الشيخ قال لمن حوله قولوا لي ما أفعل به هذا رجل يرى العقوبة نعمة اتركوه بيننا و بينه الله وبقي الشيخ على هذا ثلاثة أيام

ثم ان الشيخ العلامة جمال الدين الحصري شيخ الحنفية في زمانه وكان قد جمع بين العلم والعمل ركب حماره وحوله أصحابه وقصد السلطان فاتاه خاصته وأدخلوه الى دار الملك راكبا كما أمرهم ولما رآه السلطان مشى اليه وأنزله عن حماره واكرم

مثواه وكان ذلك في رمضان قريب غروب الشمس فلما صلوا المغرب احضر السلطان قدح شراب وناوله للشيخ فقال له الشيخ ماجئت الى طعامك ولا الى شرابك فقال له السلطان برسم الشيخ ونحن نمتثل مرسومه فقال له ابش بينك وبين ابن عبد السلام هذا رجل لو كان في الهند او في اقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان ان يسعى في حلوله في بلاده ليتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك فقال السلطان عندي خطه باعتقاده في فتيا وخطه ايضا في رقعة سيرتها اليه فيقف الشيخ عليهما ويكون الحكم بيني وبينه ثم احضر السلطان الورقتين فقرأهما الشيخ الى آخرهما وقال هذا اعتقاد المسلمين وشعار الصالحين ويقين المؤمنين وكل مافيهما صحيح ومن خالف مافيهما وذهب الى ماقاله الخصم من اثبات الحرف والصوت فهو حمار فقال السلطان نحن نستغفر الله مما جرى ونستدرك الفارط في حقه والله لاجعلنه أغنى العلماء وأرسل الى الشيخ واسترضاه وطلب محالته ومخالته

وكان الحنابلة قد استنصروا به على أهل السنة وعلت كلمتهم عليهم بل صاروا يسبونهم ويضربونهم فأمر السلطان الفريقين بالامساك عن الكلام في مسألة الكلام وان لايفتي فيها أحد سدا لباب الخصام فانكسرت نفوس المبتدعة بعض الانكسار وفي النفوس مافيها ولم يزل الامر على ذلك حتى قدم السلطان الملك الكامل من مصر الى دمشق وكان اعتقاده صحيحا ومتعصبا لاهل الحق فاستقصى ماوقع في المسألة وقال للملك الاشرف ياخوند ماذا صنعت في أمر الشافعية والحنابلة فقال ياخوند منعت الطائفتين من الكلام واقطع بذلك الخصام فقال الملك الكامل والله مايح ماهذه الا سياسة وسلطنة تساوي بين أهل الحق والباطل وتمنع أهل الحق من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان يظهروا دين الله وأن يشنق من هؤلاء المبتدعة عشرون نفسا ليرتدع غيرهم وأن يمكن الموحدون من ارشاد المسلمين وان يبينوا لهم طريق المؤمنين . فعند ذلك زلت اعناق المبتدعة وانقلبوا خائبين ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال على يد الملك الكامل وانقشعت المسألة للملك الاشرف وصرح بخجله وحيائه من الشيخ وقال لقد غلطنا في ابن عبد السلام غلطة عظيمة وصار يترضاه ويعمل بفتاويه ويقرأ مصنفاته